العتبات النصية وتقنيات السرد في خطبة الوداع للرسول (صلى الله عليه وسلم)

The textual thresholds and the narrative techniques in prophet Mohammad (PBUH) farewell Khutba

معتصم غوادره

Mo'tasem Ghawadrah

قسم اللغة العربية وآدابها، كلية العلوم الانسانية، جامعة النجاح الوطنية، نابلس، فلسطين

Department of Arabic Language and Literature, Faculty of Humanities, An-Najah National University, Nablus, Palestine

الباحث المراسل: mo3tasimbasem@gmail.com

تاريخ التسليم: (2019/6/26)، تاريخ القبول: (2019/10/6)

ملخّص

يعالج هذا البحث العتبات النصية في خطبة الوداع، التي ألقاها النبي (صلى الله عليه وسلم) في حجته الأخيرة، بغية الوصول إلى أثرها في بناء الخطبة، وفي الخطابة فيما بعد؛ ولذا يحاول أن يكشف عن الشروط، التي ينبغي أن تتوافر في بعض العتبات لكي تكون مقنعة ومؤثّرة، وأن يكشف عن أهمية تلك العتبات في كشف أغوار النص ومداخله. ويقوم هذا البحث بتطبيق العتبات التي وضعها (جيرار جينيت) على تلك الخطبة، ويتوقَّف عند شخصية المؤلف، ثم يتناول العنوان وعلاقته بالنص، ويدرس الجملة البدئية، والجملة الختمية، وأما ما بقي من عتبات فإنها لم تتوافر في الخطبة؛ لأنها وجدت مع تطور الطباعة الرقمية، ويوضّح أخيرًا تقنيات السرد، التي اعتُمِدت في الخطبة.

الكلمات المفتاحية: العتبات النصية، تقنيات السرد، خطبة الوداع.

Abstract

This research deals with the textual thresholds in farewell speech (khutba) that delivered by prophet Mohammad (PBUH) in his last pilgrimage in order to reach to its effect on khutba's construction, and elocution later. So, it tries to reveal the conditions that should be found in some thresholds in order to be effective and convincing. In addition, to show the importance of these thresholds in revealing the contents of the text. This study applies the thresholds that developed by (Gerar Genette)

on this khutba. And it depends on many aspects such as the personality of the auther, the relationship between the title and the text, the initial and the final clause. Also, the narrator and the receiver. This khutba doesn't contain the rest of the thresholds because it appeared with the digital printing. Finally, it illustrates the narrative techniques and its importance in Khutba.

Keywords: Textual Thresholds, Narrative Techniques, Farewell Pilgrimage.

تأسيس

يقصد بالعتبات النصية تلك المرفقات التي تحيط بالنصِّ، وهي عناصر يوجّهها المؤلف، بدرجة أساسية، إلى قارئ النص ومتلقيه؛ لتضعه على المسار الصحيح في القراءة، وتشمل العتبات كل ما يحيط بالنصِّ، والمداخلَ التي تجعل المتلقي يمسك بالخيوط الأولية والأساسية للعمل المعروض(1).

ويقدِّم (جينيت) تعريفًا مفصَّلًا للمناص في كتابه "عتبات" بجعله نمطًا من أنماط المتعاليات النصية والشعرية عامة؛ فالنصُّ لا يمكننا تسميته إلا بمناصه، فتكاد لا تجد نصًّا خاليًا من عتبات لفظية أو بصرية، مثل (اسم الكاتب، العنوان، الاستهلال، الإهداء...) وهي "كل ما يجعل من النصِّ كتابًا يقترح نفسه على قرائه أو بصفة عامة على جمهوره ... نقصد به هنا تلك العتبة، بتعبير(بورخيس)، البهوَ الذي يسمح لكل منا دخوله أو الرجوع منه"(2)، ويقسم (جينيت) المناص إلى قسمين: محيط، وفوقي(3).

ويعنى هذا البحث بدراسة النص المحيط لخطبة الوداع؛ أي دراسة ما يقع حول النص في فضائه ذاته وما يقع في داخل سياجه، ويرتبط هذا النوع بالكتاب نفسه، ويساعد على فهمه وتأويله، ويشمل كل ما يتعلق بالمظهر الخارجي للكتاب؛ كصورة الغلاف، ويشمل ما يدور في النص من مصاحبات تأخذ حيِّزًا من الكتاب مثل: اسم المؤلف، العنوان، الإهداء، الاستهلال، التمهيد...؛ ويقسم النص المحيط إلى(4):

- محيط نشري: يضمُّ الغلاف، والجلادة، وكلمة الناشر.

(1) انظر: حمداوي، جميل: *السيموطيقيا والعنونة*، عالم الفكر، الكويت، العدد رقم 3، 1يناير، 1997، ص102.
(2) بلعابد، عبد الحق: *عتبات (جيرار جينين من النص إلى المناص)*، تقديم سعيد يقطين، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2008، ص44.
(3) انظر: السابق: ص49 و50، لا يهتم هذا البحث بالنص الفوقي الذي يشمل ما يقع حول النص، ولكن ليس في فضائه ذاته، بل خارج هيكله، وهو ذو بعدين: إعلامي، وأكاديمي؛ يشمل اللقاءات الصحفية، والمناقشات، والندوات، والحوارات الإعلامية؛ ويشمل الدراسات الأكاديمية، والرسائل الجامعية، والقراءات النقدية.
(4) انظر: السابق: ص49.

- محيط تأليفي: يضـــم اســـم الكاتب، والعنوان الرئيس، والعنوانات الفرعية، والاســـتهلال، والتصدير، والتمهيد، والجملة البدئية، والجملة الختمية.

ولأنَّ الخطبة لم تؤلَّف في كتاب، لم يتوافر فيها عناصـــر المحيط النشـــري، التي عرفت مع تطور الطباعة الرقمية؛ ولذا اهتمّ هذا البحث بالمحيطِ التأليفي لخطبة الوداع التي ألقاها الرســـول (صلى الله عليه وسلم) في حجته الأخيرة.

إن العتبات هي مدخل للنص، نجدها تتجلّى بوصـــفها تلك العلامة التي تحيل إلى واقع، "إذ نخطو عليها من الداخل إلى الخارج، وهي أشـــبه بعتبة المنزل التي تربط الداخل بالخارج، وهي المكان الذي لا غنى عنه للداخل إلى المنزل"[(1)]، أما العلاقة القائمة بين العتبات والنصـوص التي تنتمي إليها فهي علاقة تفاعلية، دون أن يلغي ذلك وجود اسـتقلالية نسـبية لكل جانب عن الآخر، علمًا أن العتبات هي مداخل مؤطّرة لاشتغال النصّ وتداوله؛ لأنها تحدّد نوعية القراءة، التي تؤثّر تأثيرًا مباشـــرًا في القرّاء[(2)]؛ ولهذا لم يكن وجود العتبات ترفًا فكريًّا أو خطابًا عاديًّا، بل كان لها وظائف عدة؛ هي: الوظيفة الجمالية التي تتمثّل في تزيين النصّ وتنميقه، والوظيفة التداولية التي تكمن في اسـتقطاب القارئ للولوج في عالم النصِ بشـكل تدريجي، ووظيفة التعيين الجنسـي لهذا النصّ، والوظيفة الإخبارية التي تكمن في الإشــارة إلى اسـم الكاتب ودار النشـر، ووظيفة تحديد مضمون النصّ ومقصده[(3)].

ونحن، في هذه الدراسـة، أحوج إلى تطبيق العتبات النصـية أكثر من التعريف النظري لها؛ فالتنظير لها قد يطول، أما التطبيق فقائم على أيّ عمل أدبي، يكاد لا يخلو كتاب من تلك العتبات، التي غالبا ما توضـع لهدف، وليس عبثا؛ ولذا يهدف البحث إلى الكشـف عن هذه العتبات في نصّ خطبة، وضـعها نبيُّنا في أواخر حياته؛ ليكون رائدًا في تطبيقِها على نصّ خطبة؛ ذلك أن دراسـة العتبات النصّية ليست حكرًا على الأعمال الروائية والقصـصـية والشـعرية حسـب، وإنما أيضًـا يصـلح تطبيقها على الخطب والأعمال النثرية الأدبية المختلفة. وبما أنه لم تقع يدي على دراسـة تناولت العتبات النصـية وتقنيات السـرد في خطبة معينة، آثرت أن أتناولها في خطبة الرسـول (صـلى الله عليه وسـلم)، التي اشـتُهرت بخطبة الوداع؛ ولعل تناولها يفيد في الانتباه إلى دراسـة العتبات في المزيد من الخطب.

العتبات النصية في خطبة الوداع

المؤلّف

يعدُّ اســـم المؤلِّف عتبة دالّة ومهمّة؛ لأنها تثبت هوية الكاتب وتحقّق ملكيته الأدبية للنصّ، ويعدُّ أيضًـــا من العناصـــر المهمّة، التي لا يمكن تجاهلها؛ لأنه يشـــكّل علامة فارقة بين كاتب

(1) العدواني، معجب: *تشكيل المكان وظلال العتبات*، النادي الأدبي، جدة، 2003، ص7 و8.
(2) انظر: لحميداني، حميد: *عتبات النص الأدبي بحث نظري*، المجلد 12، الجزء 46، ديسيمبر، 2002، ص23.
(3) انظر: بلعابد، عبد الحق: *عتبات (جيرار جينين من النص إلى المناص)*، ص78-88.

وآخر[1]، أما عن وظيفة هذه العتبة فقد أثبت لها (جينيت) وظائف ثلاثة؛ هي: وظيفة التســـمية لإثبات هوية العمل للكاتب بإعطائه اســـمه، ووظيفة الملكية التي تدل على أحقية ملكية العمل الأدبي، وآخرها الوظيفة الإشهارية[2].

ومؤلِّف خطبة الوداع هو النبي محمدٌ (صـــلى الله عليه وســـلم)، الذي اتكأ على الخطابة في تبليغ دعوته، وفي إرشاد الناس إلى الحقائق وفضائل الدين الحنيف، وشخصية الرسول شخصية دينية اعتمدت في نشـــر تعاليم الإســـلام على الدعوة ســـرًّا وجهرًا، واســـتنّ، حين انتشـــر الدين الإســـلامي في أرجاء المعمورة، فن الخطابة، واشـــتهر ذكره (صـــلى الله عليه وســـلم)، وتســـابق الصـــحابة والتابعون ومن جاء بعدهم على الاقتداء بسـنته وهديه، وكان مما أقرَّه الخطبةُ، التي ما زالت إلى يومنا هذا تحتفظ بصفاتها كما وردت عنه.

إن محمدًا (صلى الله عليه وسلم) قد اجتمع له من الفصاحة والبلاغة ما جعل الكفّار يتّهمونه بأنَّه شـاعر أو سـاحر؛ ففصـاحة لسـانه ولغته جعلت خطابته مؤثّرة، كما أنه جمع الناس كلهم على دين واحد، ووحَّد قلوبهم على قلب واحد، ولم يدع جهدًا في سبيل نصح الناس إلا استعمله، وأخذ به، "فاجتمع له بذلك كل أسـباب البلاغ للرسـول، والنجاح للخطيب، وثقةُ القوم بصـدق الداعي أو الخطيب أساسُ إجابته، وشرطٌ لنجاح دعوته، وقد كان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) في قومه مثلًا للأمانة والصـدق، حتى لقبوه فيما بينهم الصـادق الأمين"[3]، واتصـف –عليه صـلوات الله- بعطفه، ورحمته، وحلمه، وســماحته، وتواضـــعه، وحبه، ووفائه، وعظمته، فضـــلًا عن مهارته الحربية والعسكرية، وعبقريته الإدارية والسياسية[4]. وقد وصـف الجاحظ قدرة الرسـول (صـلى الله عليه وســـلم) وبلاغته في خطابته[5]، فكان بذلك خطيبًا مفوّهًا، رســـم للخطباء من بعده مادة الخطبة وأســـلوبها، وانتهج هذه الطريقة لدعوة الناس؛ لأنه كان لا ينطق عن الهوى، كما أن تعاليمه كانت للناس جميعًا.

ألقى النبي (صـــلى الله عليه وســـلم) خطبته في حجة الوداع، وثبَّت فيها أهم أصـــول الدين ومبادئه الســـامية، وأنبه إلى حق حفظ النفس وحرمة قتلها، وحق تملك المال وحرمة اغتصـــابه، وحق الأمانة الذي يتمثّل في حفظها وردِّها إلى أهلها، وحق الأصل الواحد، وحق المساواة لاتحاد الناس في الخلقة؛ فلا فرق بين عربي وعجمي إلا بالتقوى، ودعا الإنســـان إلى التمسُّـــك بالدين، وعدم الاعتداء على أخيه الإنســـان، وأمر بأن يكون القرآن دســـتور حياتنا، وأشـــار إلى حقوق الزوجة وطبيعة علاقتها مع زوجها، وبيّن العلاقة التي تجمع بين الفرد وجماعته الكبرى من

(1) انظر: عبد الحق بلعابد: *عتبات (جيرار جينيت من النص إلى المناص)*، ص63.
(2) انظر: السابق، ص64 و65.
(3) شلبي، عبد العاطي محمد: *الخطابة الإسلامية*، المكتب الجامعي الحديث، الاسكندرية، 2006، ص34.
(4) انظر لمزيد من التوضيح عن شخصية الرسول(صلى الله عليه وسلم): درويش، محمد طاهر: *الخطابة في صدر الإسلام*، دار المعارف، القاهرة، ط2، 1967، 1/185- 197.
(5) الجاحظ، عمرو بن عثمان: *البيان والتبيين*، دار ومكتبة الهلال، بيروت، 2002، 13/2.

الأمة، ونبّه إلى ما قرره القرآن الكريم في الميراث[1]، ولعل خير خطبة تشريعية صوّرت كيف كان ينظّم هذا المجتمع الروحي ويرسي قواعد الخطابة فيها هي خطبته (صلى الله عليه وسلم) في حجة الوداع[2]، فهي تشريع وتنظيم لحياة الفرد والأمة، وكان الرسول "يبيّن في خَطابته حدود الحياة الإسلامية، وما ينبغي أن يأخذ به المسلم نفسه في علاقاته الكبرى مع أفراد أمته وعلاقاته الصغرى مع أسرته"[3].

العنوان

يعدُّ العنوان من أهم عناصر العتبات النصية؛ لأنَّه يشكِّل عنصرًا أساسيًّا ومهمًّا في النصوص الأدبية، وبخاصّة النثرية منها، ويمكن بوساطته الولوج في عالم النص، وكشف أسراره[4]، وإنَّ "العنوان للكتاب كالاسم للشيء، به يعرف، وبفضله يتداول، يشار به إليه، ويدل به عليه"[5]، ويؤدّي وظائف عدّة، تمكّن القارئ من فهم مراد النصِّ قبل أن يقرأه، وإنَّ" أول عتبة يطؤها الباحث السيميولوجي، هي استنطاق العنوان واستقراؤه، بصريًّا ولسنيًّا، أفقيًّا وعموديًّا"[6].

إنَّ العنوان مفتاح للنصوص، ندخل منه إليها، ويستطيع بذلك "أن يقوم بتفكيك النص، من أجل تركيبه، عبر استكناه بنياته الدلالية والرمزية، وأن يضيء لنا، في بداية الأمر، ما أشكل من النصِّ وغمض"[7]؛ وبذلك أصبح العنوان ضرورة كتابية، يفرض وجوده غياب الاتصال الشفهي في العمل المكتوب، وهذا يستلزم علامات تقوم مقامه، وتعوّض ما أحدثه في ظل غيابه[8].

إن المتأمّل في عنوان الخطبة يتبادر إلى ذهنه أسئلة عدة: هل العنوان "خطبة الوداع" من وضع النبي (صلى الله عليه وسلم) أم من وضع الصحابة؟ بل هل وضعه التابعون فيما بعد؟ وهل هناك دلائل تؤكّد مضمون العنوان؟ وما علاقته بالنبي (صلى الله عليه وسلم)؟ ولعلَّ هذا البحث يجد إجابة لمثل هذه التساؤلات اعتمادًا على ما ورد في سيرة الرسول وفي مضمون الخطبة.

يتكوَّن العنوان من لفظتين؛ هما (خطبة، الوداع)، ويُفهَم منه أن هذه الخطبة التي تقرأ فيها هي آخر خطبة ألقاها الرسول في حياته، وتذكّر بآخر موقف خطابي للرسول وقفه في عرفة بين جموع الحجيج، فقد توفِّي بعد إلقائه الخطبةَ بخمسة أيام يوم الخميس[9]. ويلحظ أن دال العنوان

(1) انظر: صفوت، أحمد زكي: *جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة*، شركة ومطبعة البابي الحلبي وأولاده، مصر، 1993، ص57-59.

(2) انظر: ضيف، شوقي: *الفن ومذاهبه في النثر العربي*، دار المعارف، القاهرة، ط6، 1971، ص53.

(3) شلبي، عبد العاطي محمد: *الخطابة الإسلامية*، ص46.

(4) انظر: حمداوي، جميل: *السيموطيقيا والعنونة*، ص98.

(5) الجزار، محمد فكري: *العنوان وسيموطيقيا الاتصال دراسات أدبية*، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، 1998، ص15.

(6) حمداوي، جميل: *السيموطيقيا والعنونة*، ص97.

(7) السابق: ص96 .

(8) انظر: الجزار، محمد فكري، *العنوان وسيموطيقيا الاتصال دراسات أدبية*، ص15.

(9) انظر: الندوي، علي الحسني، *السيرة النبوية*، دار ابن كثير السابعة، بيروت، 2013، ص533.

يتكوّن من لفظتين، أضيفت إحداهما إلى الأخرى، وتحمل الإضافة عند ابن عقيل معانيَ ثلاثًا؛ فقد تكون بمعنى اللام، أو "من"، أو "في"[(1)]، وتحمل الإضـــافة في هذا العنوان معنى "من"؛ أي خطبة من الوداع، وهنا يقوم المضاف إليه بتبيان نوع المضاف ليكسبه التعريف، والوداع وصف للحجة، وآخر خطبة له هي خطبة الوداع، التي ألقاها في حجّته الأخيرة، ولكنّ الإضـافة قد تحمل أيضًـا معنى "في"، إذا قصَد العنوان أنَّها كانت آخر خطبة له في حياته؛ أي أنَّه خطبها في لحظة الوداع أو قبل الوداع بفترة قصيرة، ويظلّ هذا العنوان قابلًا للنقاش؛ لأنه ليس من وضع الرسول (صـلى الله عليه وسـلم)، وإنَّما من وضـع من جاء بعده من الصـحابة وغيرهم من التابعين، ومن هاتين القراءتين تكشّـــف لنا أن المضـــاف إليه يحتمل أن يكون وصـــفًا للحجّة، التي قيلت فيها الخطبة، ثم نُقِل هذا الوصـف إلى المضـاف، أو أن يكون وصـفًا للخطبة ذاتها؛ لكونها آخر خطبة وصلت إلينا من خطب الرسول (صلى الله عليه وسلم).

اشـتهرت هذه الخطبة مقرونة بلفظة الوداع؛ لأنَّها اكتسـبت شـهرتها من الحجة الأخيرة؛ فقد ألّف القرطبي فيها كتابًا أســماه "حجّة الوداع"[(2)]، ولخَّص الطبري صـــفة حجّته هذه في كتابه "حجة المصطفى"[(3)]، ويتّضح هنا أنّ العنوان استقى المضاف إليه من حجة الوداع؛ لاشتهار هذه الحجة واشـتهار الخطبة، التي ألقيت فيها وحملت مسمّاها، كما أنَّنا نجد هذه التسـمية حاضـرة في خطاب عائشة ــرضـي الله عنهاـ قديمًا[(4)]، وفي خطاب بعض الصحابة ــرضـي الله عنهمـ[(5)]، أمّا عن سـبب التسـمية فهي ترجع، بلا شـك، إلى أن هذه الحجّة كانت آخر حجّة للرسـول(صـلى الله عليه وســلم)، فكانت بذلك وداعًا للناس أجمعين، ولعلَّه أشـــار في خطبته إلى ذلكم، وذلك بقوله: "أيُّها الناس، اســمعوا مني أبيّن لكم، فإنّي لا أدري لعلّي لا ألقاكم بعد عامي هذا، في موقفي هذا"[(6)]. وكأنَّه يوحي إلى دنوّ أجله، ويُلمِح إلى ذلك بإنبائه لهم أنَّه لا يدري متى ســيموت، وأنَّه ربما لا يبلغ السنة المقبلة ليحجَّ معهم؛ لأنَّه ربما لن يكون بينهم؛ وبهذا كان دال العنوان مقتبسًا من هذه الحجّة، التي أضــيفت إلى دال الوداع، ومن ثَمَّ أضـــيف دال الخطبة إلى دال الوداع؛ لتكون الخطبة دالَّة دائمًا على حجّة الوداع، التي اكتسـبت مسمّاها من أن الرسـول لم يحجّ حجّة غيرها؛ لأنَّه ودَّع الدنيا بعدها، ومن هنا أخذت الخطبة تســميتها من حجة الوداع؛ لأن النبي قال خطبته فيها.

ومن هنا نتعرف إلى مصــدر العنوان الرئيس، الذي انتشـر بسـببه، وذاع به إلى يومنا هذا، علمًا أنَّه لم يُحتفَظ من خطب الرسول إلا القليل، "ومن المحقّق أنَّه خلَّف تراثًا ضخمًا من الخطب،

---

(1) انظر: ابن عقيل، بهاء الدين: *شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك*، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الفكر، بيروت، 1985، 33/2.
(2) القرطبي، ابن حزم: *حجة الوداع*، تحقيق: أبو صهيب الكرمي، بيت الأفكار الدولية، الرياض، 1998.
(3) الطبري، محب الدين: *حجة المصطفى*، هدية مجانية مع مجلة الأزهر، عدد ذي الحجة، 1986.
(4) انظر مثلًا: الجوزية، ابن القيم: *زاد المعاد في هدي خير العباد*، مؤسسة الرسالة، بيروت ـ مكتبة المنار الإسلامية، الكويت، ط27، 1994، 2: 95، 96، 108، 4: 283.
(5) انظر: السابق، 2: 102، 105، 125، 3: 579، وغيرها كثير.
(6) صفوت، أحمد زكي: *جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة*، ص57.

غير أنَّ ما احتفظت به كتب الأدب والتاريخ من ذلك قليل، ولا ترجع قلَّته إلى قصـــر خطبه، فقد كان يطيل خطبه أحيانًا... وأكبر الظن أن خطبه أصـابها ما أصـاب خطب الجاهلية، فإنها لم تدوّن لحينها، وبعد العهد بين عصرها وعصر تدوينها"[1]، ومع ذلك فقد وصلت إليها خطبته في حجة الوداع كاملة، وإن اختلف الرواة في بعض ألفاظها وأجزائها[2]، فإنَّها من الخطب التي حفظت في بطون الكتب، وعلى ألسـنة الرواة والخطباء إلى يومنا هذا، وقد أشـار ابن كثير إلى أنَّ الرسـول (صلى الله عليه وسلم) خطب خطبة عظيمة تواترت بها الأحاديث[3].

ويتكشّــف أخيرًا أن عنوان الخطبة ذو طبيعة مرجعية؛ أي أنَّه "يحيل إلى النص، كما أنَّ النصّ يحيل إليه"[4]؛ ولذا فإنَّ الناظر في الموضـــوعات التي تناولتها الخطبة يجد أنَّها أقرَّت مضـــامين ومبادئ، كان قد أبرمها من قبل، ولكنَّه عاد ليؤكِّدها، وكأنَّ في ذلك إشـــارة إلى توديعه للمسلمين، وكأنَّه يبثُّ مجموعة وصايا أراد لها أن تصل إلى الناس كلّهم بعد وفاته؛ ولهذا سنسمع منه: إنَّ دماءكم وأموالكم وأعراضكم حرام عليكم، وإنَّ ربا الجاهلية موضوع، وإنَّ دماء الجاهلية موضـوعة، إنَّما النسـيء زيادة في الكفر، إنَّ لنسـائكم عليكم حقًّا ولكم عليهن حق، واسـتوصـوا بالنســاء خيرًا، إنَّما المؤمنون إخوة، إنَّ ربكم واحد وإن أباكم واحد[5]، وحين يقول: "فلا ترجعن بعدى كفارًا يضـــرب بعضـــكم رقاب بعض"[6]، فإنَّه يشـــير إلى مرحلة ليس هو فيها؛ ولذا نراه أوصى الناس كلّهم أن يستمسكوا بالقرآن الكريم وسنّته، في حال غيابه عن هذه الدنيا، وذلك حين قال: "فإنّي قد تركتُ فيكم ما إن أخذتم به لم تضلوا بعده: كتاب الله"[7].

الجملة البدئية والجملة الختمية

الجملة البدئية

هي الجملة التي يبدأ بها النصّ، وهي تعنى "بإنتاج خطاب بخصـــوص النصِ لاحقًا به"[8]، وتسمّى أيضًا الاستهلال أو الفاتحة، وتسهم في فهم المضمون، وقد تكون حكمة، أو مثلًا عربيًّا، أو آية قرآنية، أو عبارة من متن النص ذاته، ولها عدة وظائف، تختلف من عمل أدبي إلى آخر.

وأصـبح السـؤال عن افتتاح الخطاب ضـروريًّا، فلكي تنجح الخطبة ينبغي أن يكون الافتتاح واضحًا في ذهن الخطيب، الذي يجب أن يكون قادرًا على صياغته بطريقة تثير الفضول أو تلفت السـامع؛ وضـعت (دايل كارينجي) نقاطًا أبرزت فيها أهمية افتتاح الخطاب، أنبهت إلى الحذر من الافتتاح بما يدعى قصَّــة مرحة، وإلى ضــرورة تجنُّب البدء بالاعتذار، وأشـــارت إلى أنَّه يمكن

(1) ضيف، شوقي: *الفن ومذاهبه في النثر العربي*، ص52.
(2) انظر: أبو زهرة، محمد: *الخطابة أصولها، تاريخها في أزهر عصورها عند العرب*، دار الفكر العربي، القاهرة، 1980، ص276.
(3) انظر: أبو الفداء إسماعيل، ابن كثير: *البداية والنهاية*، دار الفكر، 1986، 194/5.
(4) لحميداني، حميد: *عتبات النص الأدبي بحث نظري*، ص21.
(5) انظر في نص الخطبة: صفوت، أحمد زكي: جمهرة *خطب العرب في عصور العربية الزاهرة*، ص57-59.
(6) السابق، ص59.
(7) السابق، الصفحة نفسها.
(8) عبد الحق بلعابد: *عتبات (جيرار جينين من النص إلى المناص)*، ص112.

للخطيب أن يبدأ بقصَّــة أو بتقديم مثل محدد، أو أن يلجأ إلى الاسـتعراض، أو أن يسـأل سـؤالًا، وألمحت إلى أن الموضــوع ينبغي أن يرتبط بمصـالح المسـتمعين الحيوية[1]، وهذا كلُّه يؤكِّد أنَّ للافتتاحية قيمة مهمَّة في تلقِّي الخطبة، وعملية التأثير في المســتمعين؛ لأنَّها هي أوَّل ما يبدأ به الخطيب.

وعند دراسـة نصِّ الخطبة ينبغي أن يُلتفت أوّلًا إلى المقدّمة، التي افتتح بها الخطيب خطبته؛ لأنَّها هي أولَ ما يسمعه المتلقّون، فإن وقع من نفوسهم القبول عند سماعها كانت الخطبة ناجحة؛ لأن الخطيب اسـتطاع أن يصـل إلى قلوبهم، وإن لم تصـادف قبولًا صـعبت الحال، واحتاج إلى خبير بأحوال النفوس[2]، فكيف سـتكون النفوس مع خطبة الوداع التي تلقّفتها القلوب والعقول، وملأت شـهرتها الدنيا، واحتشـد الخطباء حولها، في بث ما ورد فيها من معان دينية، وأصـول تشريعية، فضلًا عن احتذائهم لها في بنائها الفني الذي رسمه لها رسول الله.

ولهذا؛ كان لافتتاح الخطبة شـروط عدة، هي: أن يكون قصـيرًا موجزًا؛ لكيلا يشـغل الذهن بغير المطلوب، وألا يكون مبتذلًا تمجُّهُ القلوب، وأن يكون موافقًا لموضـوع الخطبة[3]؛ لتخدمه وتمهّد له، وينبغي أن يكون واضـحًا ومناسـبًا لعقول السـامعين، وأن يكون موزون المعاني، دقيق التعبير، ويشـترط فيه أن يناسـب الخطبة طولًا وقصـرًا؛ لأنَّه مقدِّمة لا خطبة، وتمهيد لا موضـوع[4]، وربما فُرِضت هذه الشروط اقتداءً بخطبة النبي (صلى الله عليه وسلم)، ولعل ذلكم سـيتضـح عند تبيان عتبة الجملة البدئية في خطبة الوداع، ولكن يمكن أن نتسـاءل هنا: لم جُعِلت هذه المقدّمة أسـاسًا ينبغي أن يبتدئ الخطيب به، وكأنها تشبه المقدمة الطللية، التي لم يكن ثمَّ مفرّ للشـاعر الجاهلي منها إلا إذا حدثت معه حادثة منعته من ذلك، وكذلك الخطيب يلتزم بها إلا إذا اعترضه عارض، يدفعه إلى أن يترك المقدمة إلى الموضوع مباشرة، كما هي الحال في الخطبة البتراء؛ ولهذا لا بدّ أن يكون هناك صلة بين مقدّمة الخطبة ونصّها، يستطيع المرء كشفها بعد أن يفهم المناسـبة، التي دفعت الخطيب إلى إلقاء خطبته، ولا يقتصـر نجاح خطبته على تحقّق الشروط، التي ذكرتُها آنفًا، بل يتجاوزها إلى أهمية العلاقة بين مقدّمة الخطبة وموضوعها.

اختُلِف في الجملة البدئية التي افتتح الرسـول (صـلى الله عليه وسـلم) بها خطبة الوداع على افتتاحيتين؛ الأولى أنّه افتتح خطبته بحمد الله واسـتغفاره، وبالشـهادتين، وذلك في قوله: "الحمد لله نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ محمدًا عبده ورسـوله، أوصـيكم عباد الله بتقوى الله، وأحثّكم على طاعته، وأسـتفتح بالذي هو

(1) انظر: كارينجي، دايل: *فن الخطابة*، دار أسامة، بيروت، 1997، ص97- 100.
(2) انظر: أبو زهرة، محمد: *الخطابة أصولها*، تاريخها في أزهر عصورها عند العرب، ص97.
(3) انظر: أبو زهرة، محمد: *الخطابة أصولها*، تاريخها في أزهر عصورها عند العرب، ص100.
(4) انظر: الحوفي، أحمد: *فن الخطابة*، أكاديمية نايف العربية للعلوم الأمنية، القاهرة،1949، ص95-99، حسن، محمد عبد الغني: الخطب والمواعظ، دار المعارف، القاهرة، ط2، 1968، ص42.

خير. أما بعد: أيها الناس، اسـمعوا منّي أبيِّن لكم، فإني لا أدري لعلّي لا ألقاكم بعد عامي هذا، في موقفي هذا"[1].

وما يميّز هذه الافتتاحية أنَّها فرضت نفسها على خطب من جاء بعد النبي (صلى الله عليه وسلم)، وما زالت تفرض نفسها إلى يومنا هذا؛ فقد أشار الجاحظ سابقًا إلى ذلك؛ في قوله: "على أن خطباء السلف الطيب، وأهل البيان من التابعين بإحسان، ما زالوا يسمّون الخطبة التي لم تُبتدَأ بالتحميد، وتستفتح بالتمجيد: البتراء. ويسمّون التي لم توشَّح بالقرآن، وتزيَّن بالصلاة على النبي (صلى الله عليه وسلم): الشوهاء"[2]، وهذا يدل على أنَّ هذه المقدِّمة أقرها النبي، واتبعها الخطباء من بعده، ومن هنا وضع العرب شروطًا في البدء والختام أوجبوا السير عليها والتقيُّد بها؛ فجعلوا افتتاحها بالتحميد والتمجيد لله والصلاة على النبي شرطًا لا يجوز التحلُّل منه[3]، وإلا عُدَّت الخطبة بتراء، وإن لم تحتوِ على الصلاة على النبي عُدَّت شوهاء؛ وكأن شروط مقدمة الخطبة قد استُمدت من جمالية المقدمة التي كان النبي (صلى الله عليه وسلم) يستفتح بها خطبه، ولكن ينبغي أن تحكمها الأسباب التي دعت إلى إلقاء الموضوع، الذي تنتمي إليه.

ولمقدمته هذه صلة مباشرة بموضوع خطبته، ويُظهِر ذلك أنَّه ألقاها بعد كمال الدين وتمامه؛ أي بعد أنه أُنزِل قوله -تعالى-: {الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا}[4]، فاشتملت خطبته على أسس الدين الإسلامي تقريرًا وتثبيتًا؛ ولذا أوعز مباشرة إلى دنوِّ أجله، ورغبته في وصول الخطبة إلى الناس جميعًا، وبيّن ما كان سائدًا في الناس أيام الجاهلية، وأثبت منه ما يناسب الدين الإسلامي، وأسقط ما يخالفه، وأوصى الناس بتجنُّب ما خاف عليهم منه، وما ثبت في نفوسهم من مساوئ، تُفسِد علاقتهم ببعضهم بعضًا، أو علاقتهم بنسائهم.

أما الافتتاحية الأخرى فقد كانت على شكل أسئلة، أثارت انتباه الصحابة –رضي الله عنهم-؛ فقد قال مستفتحًا: "أيّ يوم هذا ؟! فسكتنا حتى ظننا أنّه سيسمّيه سوى اسمه. قال: أليس يوم النحر؟ قلنا: بلى. قال: فأيّ شهر هذا؟ فسكتنا حتّى ظننّا أنّه سيسمّيه بغير اسمه. فقال: أليس بذي الحجّة؟ قلنا: بلى. قال: فإنّ دماءكم وأموالكم وأعراضكم حرام عليكم، إلى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا، ليبلّغ الشاهد الغائب، فإنّ الشاهد عسى أن يبلّغ من هو أوعى له منه"[5].

يتكشّف أنَّه بدأ بافتتاحية جلبت انتباه السامعين، وجذبت عقولهم، ومهّدت لموضوع الخطبة؛ ولذا كانوا يسكتون، وفي ذهنهم أنه (صلى الله عليه وسلم) سيأتي لهم بما هو غير متوقع، ولكن سؤاله كان تأكيدًا لما يقولونه، فحين قال: أي يوم هذا؟ فسكتوا، فقال: أليسَ يوم النحر؟ كان يؤكِّد

(1) صفوت، أحمد زكي: *جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة*، ص57.
(2) الجاحظ، عمرو بن عثمان: *البيان والتبيين*، 6/2.
(3) انظر: حسن، محمد عبد الغني: *الخطب والمواعظ*، ص42.
(4) المائدة: آية 3.
(5) البخاري، محمد بن إسماعيل: *صحيح البخاري*، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، ط1، 2002، 24/1.

بسـؤاله إجابته بغية إيصـال مجموعة من الحدود والأصـول الشـرعية، التي لا يجوز التهاون أو التساهل فيها، وأكمل أسئلته؛ ليثبت أن دماء المسلمين وأموالهم وأعراضهم حرام عليهم، كحرمة يوم النحر، في شـهر ذي الحجة، في بلاد المسـلمين، ولو لم يكن افتتاح خطابه هكذا لما لفت انتباههم جميعًا؛ ولهذا أثّر خطابه في الصحابة والمسلمين، حتى إنَّك تجد المتعلّم والعامي والأمي يستشـهدون ببعض أقواله من هذه الخطبة؛ فحققت بذا الهدف الذي سـعى رسـول الله له، فلم يك هدفه إيصال معلومات، بل إقناع أمّة كاملة بما يقوله؛ فاستعان لذلك بمقدّمة لافتة ومؤثرة.

الجملة الختمية

هي الجملة التي يختم بها العمل الأدبي، قد تكون خاتمة للسـرد بشـكل نهائي، ولكن ليس من الضروري أن تُنهي كل علاقة للقارئ مع النص، رغم بلوغه نهايةَ القراءة المباشرة له، ومن هنا تعد الخاتمة عتبة من العتبات النصية، ولكنّها ليست عتبةَ دخولٍ، بل هي عتبةُ خروجٍ من النص، لا تعني دائمًا نهاية الاشتغال به[(1)].

والخاتمة في الخطبة هي آخر ما يلقيه من خطبته، تهدف إلى تثبيت تعاليم الإسلام؛ ولذا كان لها أثر واضـح في التأثير والإبلاغ، ويحسـن أن تكون الخاتمة مشـتملة على موجز لما ألقاه الخطيب، وتوضـيح كامل لغايته ومرماه، وأن تكون مثيرة للعاطفة في الأمر، الذي يريد الخطيب إيصاله[(2)]، ويشترط فيها أن تكون قويّة العبارة؛ لتهزّ المشاعر، وأن تكون قصيرة ومشتملة على دعاء للمسلمين، وفي الخاتمة يتجلّى الخطيب؛ لأنَّه يسوق الناس إليه بالاستمالة والإقناع في آخر ما تستقبله أذهانهم[(3)].

وأصـبح السـؤال عن كيفية اختتام الخطاب أمرًا ضـروريًّا؛ لأن "الخاتمة هي أكثر النقاط اسـتراتيجية في الخطاب"[(4)]، وقد اختتم النبي (صـلى الله عليه وسـلم) خطبته بالحديث عن حق الميراث، وتحريم التبني؛ يقول: "أيها الناس، إن الله قد قسم لكلِّ وارث نصـيبه من الميراث، ولا يجوز لوارث وصـية، ولا يجوز وصـية في أكثر من ثلث، والولد للفراش وللعاهر الحجر. من ادَّعى إلى غير أبيه أو تولّى غير مواليه، فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل منه صرف ولا عدل. والسلام عليكم ورحمة الله"[(5)].

يتّضـح أنّ الخاتمة هنا هي جزء من الخطبة، لا يمكن أن ننظر إليها من دون اسـتيعاب ما ورد قبلها من تعاليم وأحكام، ولكنّه (صـلى الله عليه وسـلم) خصـّها بالحديث عن قضـية الميراث والتبنّي لخطورتها؛ لأن الله -تعالى- هو من قسـم لكل وارث نصـيبه من الميراث في القرآن الكريم، بحيث لا يجوز التلاعب في أحكامه أبدًا، فلم يترك مجالًا لأن تصـبح تلك الأحكام من وضع البشر فيما قرره في الخطبة، فلا يجوز لوارث وصية، ولا يجوز وصية في أكثر من ثلث،

---

(1) انظر: لحميداني، حميد: *عتبات النص الأدبي بحث نظري*، ص29.
(2) انظر: أبو زهرة، محمد: *الخطابة أصولها، تاريخها في أزهر عصورها عند العرب*، ص100.
(3) انظر: الحوفي، أحمد: *فن الخطابة*، ص106 و107.
(4) كارينجي، دايل: *فن الخطابة*، ص101.
(5) صفوت، أحمد زكي: *جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة*، ص59.

ورفض الإســـلام التبني؛ فلا يجوز أن يدّعي المرء إلى غير أبيه، وإلا فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين[1].

ولعلَّ أهمّية هذه العتبة تتّضح في تقويتها لموضوع الخطبة، وترسيخه في أذهان السامعين، وظهرت في منتهى الدقة والوضـــوح، والقوة والتأثير؛ فالولد لصـــاحب الفراش، والعاهر ترجم بالحجر، والابن لأبيه؛ وتظهر قوة التأثير في الدعاء، فعليه لعنة الله ...، فلا يُترَك مجال لأن ينتسب الولد إلى غير والده.

والذروة طريقة شائعة في الاختتام، ولكن يصعب تأليفها؛ فهي ليست بخاتمة لجميع الخطب، ولا لجميع المواضـــيع التي تتطرق إليها الخطب المختلفة، تؤلَّف حين ترتفع جملها تدريجيًّا، من جملة قوية إلى أخرى أقوى منها نسبيًّا[2]، ويمكن أن تتّضح الذروة في الخطبة عند حديثه (صلى الله عليه وسلم) عن تقسيم الله –عز وجل- الميراثَ، وتبيينه نصيبَ كلّ وارث، وليس ثَمَّ وصية لوارث، ولا وصية في أكثر من الثلث، ثم يتناول ما يتعلق بالولد الذي وُلد في حالة غير معروفة، الولد لصـــاحب الفراش، ثم الولد لأبيه، فشـــكّلت الذروة في خاتمة الخطبة حالة، أثارت الانتباه، وجمعت في أركانها كل ما ينبغي التعويل عليه في أحكام الميراث، وكيفية توزيعه، وتبيّن أن المصدر الأول لها هو القرآن الكريم.

تقنيات السرد

السـرد هو الطريقة التي يصـور فيها الكاتب قصـته، بوسـاطة راو يسـرد الأحداث، يسـمّى المؤلف الضـــمني، يأخذ عدّة أشـكال؛ فقد يكون شـاهدًا على الأحداث، وقد يكون مشـــاركًا فيها، وأحيانًا يكون عالمًا بها، كليَّ المعرفة بما يدور حوله. ووظيفة الســـارد، مهما يكن نوعه، هي أن ينقل الأحداث من مكان حدوثها، ويسردها إلى المروي له[3]؛ ولذلك فإن المسرود له هو "شخص ما يوجه إليه الراوي خطابه"[4]، يؤسِّـــس توسُّـطًا ما بين الراوي والقارئ، ويســاعدنا في إقامة إطار الســـرد، ويفيد في تشـــخيص الراوي، ويؤكِّد موضـــوعات بعينها[5]، وهذا كلُّه يبيّن هيئة القص، التي استعملها النبي في خطبته، وهي تقنية مهمة من تقنيات السرد.

إن المتأمِّل في خطبة الوداع يلحظ أن الســـارد هو النبي (صـــلى الله عليه وســـلم)؛ لأنّه هو الراوي لأحداث خطبته ومضـمونها، كما أنه يرويها بضـمير المتكلم "أنا"، فيتّخذ بذلك من نفسـه موضـوعًا لسـرده، ويمكن أن نعتبر مَن نقل حديث النبي (صـلى الله عليه وسـلم) في الخطبة هو

(1) انظر: السابق، الصفحة نفسها.
(2) انظر: كارينجي، دايل: *فن الخطابة*، ص107.
(3) انظر: العيد، يمنى: *تقنيات السرد الروائي في ضوء المنهج البنيوي*، دار الفارابي، بيروت، ط2، 1999، ص90.
(4) برنس، جيرالد: *مقدمة لدراسة المروى عليه*، فصول العدد رقم 2، 1أبريل، 1993، مصر، ص76.
(5) انظر: السابق، ص89.

الســـارد[1]؛ لأنَّ نصَّ الخطبة نُقِل إلينا بالتواتر، وهذا أدى إلى الاختلاف في بعض ألفاظ الخطبة، وفي بعض أجزائها، ولكنّ السارد هنا يحرص كلّ الحرص على نقل نصِّ الخطبة كما هو.

أما المســرود إليه فإنَّه يشــمل كلَّ من شــهد خطبته، ويتجاوزهم إلى الناس أجمعين، في كلِّ زمان؛ فهو يوجِّه خطابه وتعاليمه ليشــمل الناس كلَّهم. فدعوته جاءت لهم كافَّة، وشــملت العرب والعجم؛ وذلك ينكشـــف حين بيَّن أنَّه لا فرق بين عربي وعجمي إلا بالتقوى، فعلى ذلك قام الدين الإسلامي، ولعلّي أضع عدة أدلة من خطبة الوداع توضّح أن المسرود له امتد ليشمل المسلمين كلهم عبر العصور كلها:

1. أكثر النبيُّ (صــلى الله عليه وســلم) من قوله: أيّها الناس، وبيّن بعده أصــولًا كثيرة دعا إلى تركها؛ مثل الربا والثأر، والنســـيء، وثبّت الدعائم التي يقوم عليها الإســـلام، حفاظًا على علاقة المسلم بأخيه المسلم، وتثبيتًا للأساس الذي يقوم عليه الدين، وهو توحيد الله؛ فقد قالَ: "أيها الناس، إنَّما المؤمنون إخوة"[2]، وقال: "أيّها الناس، إنَّ ربَّكم واحد"[3].
2. كرر النبي (صــلى الله عليه وســلم) قوله: "ألا هل بلّغتُ؟ اللهمَّ فاشــهد!"[4]. وكأنَّه يريد أن يصل خطابه إلى كل من وطئ الثرى، ويُشهد الله على أولئكم الذين سمعوا خطابه، ويشهدهم هم أنفسهم على تبليغه للناس جميعًا.
3. ألمح النبي (صلى الله عليه وسلم) إلى ضرورة وصول خطابه إلى أمَّته مِن بعده، وذلك في قوله: "فلا ترجعن بعدي كفّارًا، يضـــرب بعضـــكم رقاب بعض، فإنّي قد تركت فيكم ما إن أخذتم به لم تضـلوا بعده: كتاب الله"[5]. فقد أشـار إلى أمته التي سـتجيء بعد موته بوسـاطة الظرف "بعدي"؛ أي بعد وفاته، ويتضــح المســرود له في طلبه إلى الســامعين أن ينقلوا ما سمعوه إلى مَن غاب وقتئذ عن حضور خطبته، إذ قال: "فليبلغ الشاهد الغائب"[6].

وبهذا كلِّه؛ ينكشف أن المسرود له لم يقتصر على مَن حضر خطبة الوداع حين ألقاها النبي (صـلى الله عليه وسـلم)، وإنَّما شـمل أيضًـا كل من غاب عنها، إذا وصـله ما في هذه الخطبة من تعاليم، وأصول دينية.

ويتّضح أن ثَمَّ علاقة تربط بين السارد والمسرود له، إنها الدين الإسلامي الذي ربط صحابة محمد –عليه صلوات الله- بمن سيجيء بعدهم، لتصل رسالة السارد إلى أكبر عدد من المسلمين، ولعلَّ آخرَ ما قاله النبي (صــلى الله عليه وســلم)، جملةَ التســليم، ينوب عن الدعاء للمســلمين كما اعتيد أن تُختتَم به الخطبة.

---

(1) انظر: البخاري، محمد بن إسماعيل: *صحيح البخاري*، 24/1. يبيّن من السند الذي وضعه البخاري أن ابن عون نقل أجزاء الخطبة، عن ابن سيرين، عن عبد الرحمن بن أبي بكرة، الذي نقلها عن أبيه.

(2) صفوت، أحمد زكي: *جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة*، ص59.

(3) السابق، الصفحة نفسها.

(4) السابق، ص57 و58 و59.

(5) السابق، ص59.

(6) السابق، الصفحة نفسها.

ومن تقنيات السرد مقولة زمن القصّ، التي تعني أن للشيء الذي نقصُّ عنه زمنه، لكن لفعل القصّ زمنه أيضًـــا[1]؛ فزمن القصّ يختلف عن الزمن، الذي يقصُّ عنه ذاك القصُّ، وتطبيق هذا على الخطبة يمكن أن يكشف عن أنساق مضمرة فيها، سعى الرسول إلى التخلُّص منها، فتحريمه لدماء المسلمين وأموالهم وأعراضهم، وإسقاطه عادة الثأر، ومآثر الجاهلية التي تعارض مبادئ الإسـلام، كان لهذا كلّه زمنه، واستحضره الرسول في زمن إلقائه خطبتَه؛ ليشير إلى أن هذه الأمور ينبغي أن يتخلصَّ منها الفكر الجمعي، الذي اعتاد على مثلها في زمن الجاهلية، وهكذا يحاول أن يحطّم النمط الفكري، الذي كان يسود العقلية العربية في زمن القتل والنهب؛ ليحلَّ محلَّه عقيدة الأخوّة في الإيمان؛ ولهذا أسقط الربا الذي ساد في زمن عمه العباس، وقت إلقائه خطبتَه، وأسقط كذلك حينها دم عامر بن ربيعة، الذي سُفِك في زمن الجاهلية، فقال: "وإنَّ ربا الجاهلية موضوع، ولكن لكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا تُظلمون، وقضى الله أنَّه لا ربا. وإن أوَّل ربًا أبدأ به ربا عمي العباس بن عبد المطلب. وإن دماء الجاهلية موضـــوعة، وإنَّ أوَّل دم نبدأ به دم عامر بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب، وإن مآثر الجاهلية موضـــوعة غير الســـدانة والسقاية"[2]، وما يؤكِّد أنه أراد أن يتخلَّص من نسق فكري مسيطر على جموع المسلمين، هو أنَّه بدأ بنفسه، فأسقط ربا عمه، وتنازل عن دم قريبه من جده عبد المطلب.

ومن تقنيات الســـرد أيضًـــا مقولة نمط القصّ، التي تبيّن كيف يروي الراوي ما يرى أو ما يعرف من أخبار ووقائع، هل يروي بصوته عنها أم يدعها هي تتحدَّث؟ يخبِر الرسول عن حرمة النسيء، ويروي بصوته هو كلام الله عنها، لا بصوت الله -سبحانه-؛ إذ يقول: "إنَّما النسيء زيادة في الكفر، يضـــلُّ به الذين كفروا يحلّونه عامًا، ويحرّمونه عامًا؛ ليوطئوا عدَّة ما حرم الله، فيحلّوا ما حرَّم الله، ويحرِّموا ما أحلَّ الله"[3]. فاتبع بذلك النمط الأسلوبي، الذي يتصف باللامباشرة، وهو نمط يقدِّم الكلام بصوت الراوي، وإن بدا لنا بوضوح، أن هذا الكلام ليس له[4]، ويتّضح هذا النمط أيضًا في حديثه (صلى الله عليه وسلم) عن عدِّة الشهور؛ إذ يروي بصوته عن الله جزءًا من آية، ويقول: "وإن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً في كتاب الله يوم خلق الله السماوات والأرض، منها أربعة حرم ثلاثة متواليات وواحد فرد"[5].

النتائج

عالج البحث العتبات النصـــية، التي واجهتْنا عند دخول نص الخطبة، وعند الخروج منه، وتوصّـــل إلى أنَّ للمؤلّف دورًا مهمًّا في تبليغ دعوته؛ لاتّصـــافه بالصـــدق، وبلاغته في خطابته، وتوقَّف عند عتبة العنوان، وتبيّن ثَمَّ أنّ العنوان يتكوّن من لفظتين، إحداهما أضيفت إلى الأخرى، وتحمل الإضـافة معنى "من" إذا قصد واضع العنوان أن ينسب الخطبة إلى حجّة الوداع، ولكنّها تحمل معنى "في" إذا قصـد واضـعه أنها كانت آخر خطبة له في حياته، وتكشَّـف أن العنوان ذو

(1) انظر: العيد، يمنى: *تقنيات السرد الروائي في ضوء المنهج البنيوي*، ص72.
(2) صفوت، أحمد زكي: *جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة*، ص57.
(3) السابق، ص58.
(4) انظر: العيد، يمنى: *تقنيات السرد الروائي في ضوء المنهج البنيوي*، ص107.
(5) صفوت، أحمد زكي: *جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة*، ص58.

طبيعة مرجعية؛ أي أنَّه يحيل القارئ على ما في النصّ مباشرة، بحيث تستشفُّ منه أحيانًا كثيرة ما يغنيك عن مطالعة موضوعاته المطروحة في داخل النصّ، وتوقّف البحث أيضًا عند الجملتين: البدئية بوصفها عتبة دخول، والختمية بوصفها عتبة خروج، وتبيّن أنّ لهما أهمّية كبيرة في نجاح الخطبة، وانتهى إلى أنّ صلتهما بالخطبة، لا تكمن في توافر الشروط المناسبة في كلِّ واحدة منهما وحسب، وإنما تكمن أيضًا بصلتهما بموضوعها، والمناسبة التي قيلت فيها.

وعالج البحث تقنيات السرد، التي اعتمدها الرسول (صلى الله عليه وسلم) في الخطبة، وتوصّل إلى أنّ السارد يمكن أن يكون النبي؛ لأنه روى الخطبة بضمير المتكلم "أنا"، ويمكن أن يكون مَن نقل خطبته من الصحابة والتابعين، وكشف أن المسرود له لم يقتصر على مَن حضر خطبة الوداع حين ألقاها النبي، وإنما شمل أيضًا كلَّ من غاب عنها، إلى يومنا هذا، وعند تطبيق مقولة زمن القصِّ على الخطبة، تبيَّن أنّ الرسول باستحضاره الأحداث التي جرت سابقًا، حاول أن يتخلَّص من بعض الأنساق القبلية، التي ربَّما كانت ما تزال مسيطرة على الناس آنذاك؛ رغبة في تحذير المسلمين من استمرارها، ودعوة لاجتنابها والتحرُّر منها، وانتهى إلى مقولة نمط القصِّ، التي كُشِف منها أنّ النبي روى بصوته ما سمعه، وقد اتّضح أنّ ما رواه هناك لله -عزَّ وجلَّ-.

Sources and reference:

- Al-**Bukhari**, Mohammed, saheeh Al-Bukhari, tahkek: Mohammed Zuhair, Dar- tawq Alnagat, (1 ed), 2002.
- **Prince**, Gerald: muqadimh li drasah almurwa Alih, nu: 2, 1 April, 1993.
- **Bilabed**, Abed Al-haq: Atabat, manshurat allikhtilaf, Algeria, (1ed), 2008.
- Al-**jahith**, Amur ibh Authman: albayan wa altabeen, Dar wa Maktabt Al-hilal, Beirut, 2002.
- Al-**jazzar**, Mohammed Fikre: ala'unwan wa simuteqia alitisal, General Egyptian Book Organization, Egypt, 1998.
- Al-**Jawzia**, ibn Al-Qayim: zad almua'd, Mua'sasah Al-risalah, Beirut, (27ed), 1994.
- **Hassan**, Mohammed: alkhutab wa almawai'd, Dar Al-ma'arif, Cairo, (2ed), 1968.
- **Himdawi**, Jameel: alsemuteqia wa ala'nwana, Alem Al-fikr, Kuwait, nu 3, 1 January, 1997.

- Al-**hufi**, Ahmmad: fan alkhataba, Akademet Naef Alarabia, Cairo, 1949.
- **Darweesh**, Mohammed Taher: alkhataba fi sadr alislam, Dar Alma'ref, Cairo, (2ed), 1967.
- Abu-**Zuhra**, Mohammed, alkhataba ausoluha, Dar Alfikr Alarabi, Cairo, 1980.
- **Shalabi**, And Al-A'ti Mohammed: alkhataba alislamiah, Almaktab Aljami'e Alhadeeth, Alexandria, 2006.
- **Safwat**, Ahmad Zakii: gamhart khutab ala'rab ti a'sor ala'rabet alzahra, Al-Bani Al-Halabi, Egypt, 1993.
- **Dayf**, Shawqi: alfan wa madahibuh fi alnathr Alarabi, Dar Al-Ma'arif, Cairo, (6ed), 1971.
- Al-**Tabari**, Muhibb Al-Aldeen: hujat almustafa, hadiat majania ma' majalt alazhar, nu the alhijah, 1986.
- Al-**A'udwani**, Mui'jib: tashkeel Almakan wa thilal alatabat, Al-Nadi Al-Adabi, Jeddah, 2003.
- Ibn **Aqeel**, Bahaa' Al-Deen: sharh Ibn Aqeel a'la alfet Ibn Malek, Dar Al-fikr, Beirut, 1985.
- Abu Al-**Fidaa**, Ibn katheer: albidaya wa alnihaia, Dar Al-fikr, Beirut, 1986.
- Al-**Qurtube**, Abn-hazem: Huggh Aludia, tahkek Abo-Suheb Al-Krmy, Bet Alafkaer Al dowela, Riyadh, 1998.
- **Karengy**, diel: fn Al- khetaba, Dar Osama, Beirut, 1997.
- **Lihmedany**, Hameed: Atbaeat Anaes Aladbey bheth ntheray, algoza 46, December, 2002.
- Al-**nadway**, Ali Al-husiaeny: Alseria alnaboea, Dar ibn khteer al Sabia, Beirut, 2013.

ملحق

خطبة الوداع*

"الحمد لله نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ محمدًا عبده ورسوله. أوصيكم، عبادَ الله، بتقوى الله، وأحثُّكم على طاعته، وأستفتح بالذي هو خير. أما بعد: أيها الناس، اسمعوا مني أبين لكم، فإني لا أدري لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا، في موقفي هذا.

أيها الناس، إنَّ دماءكم وأموالكم وأعراضكم حرام عليكم، إلى أن تلقوا ربكم، كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا. ألا هل بلغت؟ اللهم فاشهد! فمن كانت عنده أمانة فليؤدِّها إلى من ائتمنه عليها. وإنَّ ربا الجاهلية موضوع، ولكن لكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون، وقضى الله أنَّه لا ربا. وإنَّ أول ربًا أبدأ به ربا عمي العباس بن عبد المطلب. وإنَّ دماء الجاهلية موضوعة، وإنَّ أول دم نبدأ به دم عامر بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب، وإنَّ مآثر الجاهلية موضوعة غير السدانة والسقاية، والعمد قود، وشبه العمد ما قتل بالعصا والحجر، وفيه مائة بعير، فمن زاد فهو من أهل الجاهلية.

أيها الناس، إنَّ الشيطان قد يئس أن يعبد في أرضكم هذه، ولكنه قد رضي أن يطاع فيما سوى ذلك مما تحقّرون من أعمالكم. أيها الناس، إنَّما النسيء زيادة في الكفر، يضل به الذين كفروا يحلونه عامًا، ويحرمونه عامًا؛ ليوطئوا عدة ما حرم الله، فيحلوا ما حرم الله، ويحرموا ما أحلَّ الله. وإنَّ الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السماوات والأرض، وإنَّ عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرًا في كتاب الله يوم خلق الله السماوات والأرض، منها أربعة حرم ثلاثة متواليات وواحد فرد: ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان. ألا هل بلغت؟ اللهم فاشهد!

أيها الناس، إنَّ لنسائكم عليكم حقًّا، ولكم عليهن حق. لكم أن لا يواطئن فرشهم غيركم، ولا يدخلن أحدًا تكرهونه بيوتكم إلا بإذنكم، ولا يأتين بفاحشة، فإن فعلن فإنَّ الله قد أذن لكم أن تعضلوهن وتهجروهن في المضاجع وتضربوهن ضربًا غير مبرح، فإن انتهين وأطعنكم فعليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف، وإنَّما النساء عندكم عوان لا يملكن لأنفسهن شيئًا، أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله، فاتقوا الله في النساء واستوصوا بهن خيرًا. ألا هل بلغت؟ اللهم فاشهد!

أيها الناس، إنَّما المؤمنون إخوة، ولا يحل لامرئ مال لأخيه إلا عن طيب نفس منه. ألا هل بلغت؟ اللهم فاشهد! فلا ترجعن بعدى كفارًا يضرب بعضكم رقاب بعض، فإنِّي قد تركت فيكم ما إن أخذتم به لم تضلوا بعده: كتاب الله، ألا هل بلغت؟ اللهم فاشهد!

أيها الناس، إنَّ ربكم واحد، وإنَّ أباكم واحد، كلكم لآدم، وآدم من تراب، أكرمكم عند الله أتقاكم، وليس لعربي على عجمي فضل إلا بالتقوى. ألا هل بلغت؟ اللهم فاشهد قالوا نعم، قال: فليبلغ الشاهد الغائب.

أيها الناس، إنَّ الله قد قسَّم لكل وارث نصيبه من الميراث، ولا يجوز لوارث وصية، ولا يجوز وصية في أكثر من ثلث، والولد للفراش وللعاهر الحجر. من ادَّعى إلى غير أبيه أو تولى غير مواليه، فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل منه صرف ولا عدل. والسلام عليكم ورحمة الله".

---

* صفوت، أحمد زكي: *جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة*، شركة ومطبعة الباني الحلبي وأولاده، مصر، 1993، ص57-59.